ح١٣

الإيضاحات المتعلقة بالمعنى الجملي لآية البسملة

١٢ ـ أنّ للبسملة كسائر المضامين التوحيدية في القرآن نظرين أدنى وأعلى

الإيضاح الثاني عشر: أن للبسملة في القرآن الكريم نظرين: نظرٌ أدنى إلى نفي الشرك، ونظرٌ أعلى إلى إثبات ما يليق بالله سبحانه وتعالى شأنه من وجوه التوحيد والتعظيم.

بيان ذلك: أنّ القرآن الكريم نزل في مواجهة الشرك وفي بيئة مشركة فكان تعامله مع المشركين، ولذلك كان نظره الأدنى إلى نفي الشرك ومظاهره، إلّا أنّ له نظراً آخر أعلى إلى سائر مراتب التوحيد ولا ينبغي أن يحجب نظره الأدنى سائر مراتب المعنى المنظور، سواء كان هذا النظر الأدنى مفهوماً من خلال البيئة والجو الذي نزلت فيه الآية أم كان مصرّحاً به في الكلام.

فمن أمثلة الحالة الأولى ـ حيث يكون النظر الأدنى للآية مفهوماً من خلال البيئة التي نزلت فيها الآية ـ هو قول الله سبحانه نافياً للشرك: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ**﴾.

فالنظر الأدنى في هذا القول إلى أنّ الحمد له سبحانه وليس للات والعزى وسائر الأصنام التي اتخذوها شركاء لله تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

ولذلك قد يُتراءى مضمون هذه الآية لدى مَن يؤمن بألوهية الله سبحانه ولا يرى له شريكاً أشبه في حقه بتأكيد أمر ظاهر ومحقق، نعم، يفيد ذلك صيانته وصيانة المجتمع عن الوقوع في الشرك.

هذا، ولكن النظر الأعلى في قول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى تذكير الإنسان المؤمن بأنّ كل حمد في هذه الحياة فهو لله سبحانه، فهو ينبهه على أنّ كثيراً مما يثني عليه الإنسان مما يشهده في الكون والحياة إنّما يعود ثناؤه إلى الله تعالى، بل كثيراً ما يثني الإنسان على نفسه في شيءٍ وقد يصيبه شيء من العجب وهو غافل عن أنّ حق هذا الثناء إنّما هو مستوجب لله تعالى.

إذاً إنّ جملة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بالمنظور الأدنى ينفي الحمد للأصنام، ولكنّه بالمنظور الأعلى يعطي لله سبحانه كل الحمد الذي يستحقه، والحمد الذي يستحقه الله سبحانه ليس أن يحمد فقط في مقابل الأصنام بأن لا تُحمد بالألوهية ولا تُنسب أفعاله تعالى إليها، بل من الحمد الذي يستحقه الله سبحانه أن نرى كل شيء جميل في الحياة منه سبحانه وتعالى، لأنه الخالق للأشياء كلها والسان لسننها ومساراتها، وذلك ما يغفل عنه الإنسان كثيراً فقد يُعجب المرء مثلاً بعالمٍ ما كبعض علماء الطبيعة الذين اكتشفوا أموراً مهمة ومؤثرة في حياة الإنسان، ولكن إذا تأمل جيداً وجد أنّ هذا الإعجاب ـ وكل إعجاب ـ يرجع إلى الإعجاب بفعل الله سبحانه، فالله سبحانه هو الذي جعل هذه الخصائص الباهرة في الطبيعة وأودع هذه القدرات الذهنية في الإنسان، فالكل منه وله وإليه، وهذا المعنى هو واقع حال.

وكم من مثال لهذا المعنى في مختلف الأمور التي نشهدها من أنفسنا أو من الآخرين أو نجدها في الطبيعة، فلله سبحانه حقاً الحمد في كل معنى جميل ومبهر.

ولذلك ينبغي للإنسان أن يقول بلسان الحال أو المقال كلما رأى شيئاً لطيفاً ومؤنساً ورائعاً وعجيباً ومذهلاً: (الحمد لله وسبحان الله).

ومن الحمد الذي يستحقه الله سبحانه وتعالى أن يلتفت الإنسان إلى حجمه ويلتفت إلى صنيع الله سبحانه عنده، فلا يغفلن عن أنّ ما تيسر له كله إنما هو بما أتاحه الله تعالى من الاستعداد والقابلية والسنن المدهشة الفاعلة في داخله والمدد المتواصل منه سبحانه وتعالى.

ومن الحمد الذي يستحقه الله سبحانه وتعالى أن نرى كل صنعه بنا جميلاً وإن كان من الصعوبة للإنسان أن يبلغ إلى هذا المعنى في بعض لحظات البلاء الشديد لمحدودية طاقته وضعف مهجته، وقد جاء عن مريم (عليها السلام) قولها عند شعورها بالمخاض والولادة لطفلٍ لم ترزقه من زواج: ﴿**يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا**﴾[1]، ولكنّ الله سبحانه كان قد قدّر لها جميلاً كما اتضح بعد ذلك، وكان وليدها من خيرة رسل الله سبحانه، وقد بارك الله سبحانه فيه وفيها وجعلهما آية ومثلاً للعالمين وهي من خيرة عباد الله تعالى الصالحين المصطفين.

فهذا كله من الحمد الذي يستحقه الله تعالى، وهو جزءٌ من المنظور الأعلى بـ(الحمد لله) وليس ذلك على سبيل الحدس والتظني المبني على الاستحسان والاعتبارات المستنبطة بالذوق الشخصي، ولكنه مما تلهمه مقتضيات الفطرة وتنبّه عليه آيات القرآن الكريم حيث ذكّرت الإنسان فيها مكرراً بجميل صنع الله سبحانه عنده، وما يستوجبه تعالى من الحمد في كل النعم التي يجدها، وسيأتي إن شاء الله في تفسير كلمة (الحمد).

---

(١) سورة مريم: آية ٢٣.

إذاً خطاب ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ**﴾ بمنظوره الأدنى ينظر إلى مستوى الشرك في الألوهية ويرد على المشركين وفق ما يُفهم من البيئة، ولكنّه بمنظور أعلى ناظر إلى كل مستويات الحمد التي يستوجبها الله تعالى بموجب ألوهيته وليس إلى نفي إشراك غيره معه في الألوهية.

وإنّ الإنسان ليستطيع أن يترقى في مستويات الحمد لله سبحانه، ويطرد الزيف عن فهمه وانطباعه ومشاعره عن الكون والحياة ومجريات الحياة.

والواقع أنّ المشهد الذي حولنا هو مشهد لاهٍ وزائل عن قريب، وإذا طوى الإنسان هذا العالم اللاهي وانتقل إلى العالم الآخر فسيتبين له حينئذٍ حقيقة ما كان يعيش فيه من شواهد عظمة الله سبحانه.

ومن أمثلة الحالة الثانية ـ وهي الآيات الصريحة التي لها نظر أدنى وأعلى ـ قوله تعالى عن المشركين: ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ**﴾[1].

فهذه الآية في منظورها الأدنى ناظرة إلى المشركين الذين يلتجئون إلى الله سبحانه في مواضع الاضطرار، ثم يشركون به في حالات الاختيار، ولا تتناول المؤمنين مثلنا، لأنهم لا يشركون بالله سبحانه شركاً في الألوهية في البر والبحر وفي شيء من الأحوال.

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٦٥.

ولكن تناول الآية بحسب منظورها الأعلى المؤمنين أيضاً حيث إننا كمؤمنين نجد أيضاً اختلاف أحوالنا، فإذا كان لنا حاجة إلى الله سبحانه أذعنّا بأنّ الأمر كله لله تعالى، وإن سَلِمْنا وعوفينا وشعرنا بالقدرة اعتبرنا ما اكتسبناه لأنفسنا كما قال سبحانه: ﴿**وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ**﴾[1] فكل ما صرح به في شأن المشركين من التفريط بحق الله سبحانه وتقديره من جهة شركهم بالله سبحانه في الألوهية ينطبق في مستوى أعلى في حق الناس جميعاً، وهذا من أبعاد جري الآيات القرآنية مجرى الأمثال.

وعلى ضوء هذه القاعدة القرآنية العامة نعرف أنّ البسملة في منظورها الأدنى تنفي أن يبدأ الإنسان باسم غير الله سبحانه وتعالى ـ كاسم اللات والعزى ـ بعنوان الألوهية، ولذلك تنفي الشرك في مقابل المشركين كما جاء في سورة العلق: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾[2]؛ إذ كان المشركون يعترفون بهذا الأمر، فلا يرون خلقاً لغير الله تعالى، ولكن يرون الربوبية لأصنامهم.

وآية سورة العلق هذه شارحة للبسملة في أوّل سورة نزلت وأسست هذا الأدب، وهي بذلك تشرح البسملة في السور بعدها جميعاً.

ولكنها بالمنظور الأعلى تفيد أنّ الله سبحانه هو الذي ينبغي أن يُبدأ باسمه الكريم عند الأفعال وعند الأقوال وأنّ الإنسان ينبغي أن يرى الأشياء والأقوال والأفعال منسوبة بالنسبة الملائمة إلى الله سبحانه وتعالى، لأنّ هذا المصنع كله من

---

(١) سورة فصلت: آية ٥١.

(٢) سورة العلق: آية ١.

صنع هذا الإله، وهذه السنن هي جميعاً من سَنِّ هذا الإله، فكل هذا الجمال والإبداع والتناظر بين الأشياء كلها من الله سبحانه، هو جمال بديع للغاية.

ولذلك فإنّ البسملة بمنظورها الأعلى تفيد أنّ الله سبحانه ينبغي أن يكون هو المبدوء به دون غيره ولو لم يكن ذكره غيره على سبيل الألوهية، بل يكون تعالى مذكوراً بما يلائم شأنه وحقه عند ممارسة كل نعمة، وإنجاز كل فعل وقول، ولا ينبغي أن ينطوي المرء على الغفلة عن ذلك ويرى النعمة من دون شعورٍ بالمنعم بها، بل ينبغي أن يرى الأشياء مقرونةً بالله سبحانه، وأن يراها مضافة إلى الله تعالى كما أنّ كل مصنوع هو جزء من شخصية الصانع ويمثل قدرات الصانع[1].

والواقع أنّ جمال الأشياء أمر مشهود في كل شيء في هذه الحياة، فتأمل تخطيط الفواكه والأثمار على سبيل المثال تجد تخطيطاً مذهلاً، فهذا الرمان مثلاً تجد أنّ له وضعاً هندسياً وتخطيطاً ونظاماً وترتيبات لطيفة للغاية، وكل شيء صنع ووضع بالنحو المناسب والجميل واللطيف، ولذا ذكرت في بحث خصائص الإله أنّ من أبرز تلك الخصائص ـ مع التوسع في التعبير تقريباً للمعنى إلى أذهان المخاطبين في هذا العصر ـ هو الذوق الجمالي لله سبحانه، المتماثل في تفاصيل الأشياء من أجزاء الذرة فما فوقها.

---

(١) نعم، ينبغي الالتفات إلى أنّ الكون والكائنات إنما تمثل قدرات الله سبحانه بالنسبة إلى خلقه بما يلائم الخلق لا بما يلائم قدرته تعالى بتمامها، كما سيأتي إن شاء الله تعالى توضيح هذه المعاني كلها في محلها عند الإشارة إليها في القرآن الكريم.

ولا يختص هذا الجمال بظواهر الأشياء المشهودة لنا، بل هو سار في بواطن الأشياء كلها من الذرة فما فوقها، حتى أنه كان أمراً ملفتاً لعلماء الطبيعة الباحثين في أدق تفاصيل الطبيعة وأجزائها وظواهرها من الجمادات والنباتات والحيوانات، وقد ذكرت طرفاً من كلمات علماء الطبيعة في جمال هذا الكون والكائنات في المباحث العقائدية[١].

فتلخص مما ذكرنا أنّ للبسملة منظوراً أدنى وآخر أعلى فالمنظور الأدنى أنّ الله سبحانه هو الذي ينبغي أن يُبتدَئ به كإله دون الأصنام، والمنظور الأعلى أنه ينبغي أن يكون كل فعل وقول، بل وكل شيء مقروناً باستحضار الله سبحانه الذي هو صانعه ومبدعه والسانّ لسننه ولقواعد وجوده وهو تعالى العلي العظيم.

وهذا تمام القول في الإيضاحات المعنوية العامة حول المعنى التركيبي للبسملة، ويلي ذلك عدة إيضاحات أدبية واللفظية.

---

(١) منهج التثبت في الدين: ٥/ ٩٢ وما بعدها، القسم الأول وجود الإله وخصائصه.